إسهام اللغويين في النقد العربي القديم "كتاب الإبل للأصمعي نموذجا"

"The Role of Linguists in Early Arabic Literary Criticism: A Study of Al-Aṣmaʿī's *Kitāb al-Ibil* as an Example"

د. طامي بن دغليب الشمراني

جامعة الجوف – المملكة العربية السعودية

tami1404@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/10/09 تاريخ القبول: 2026/10/31 تاريخ النشر: 2026/11/05

الملخص: يتناول البحث إسهام اللغويين في النقد العربي القديم من خلال كتاب الإبل للأصمعي، الذي يُعد نموذجاً مبكراً لنظرية الحقول الدلالية .يكشف الكتاب عن ثراء معجم الإبل في التراث العربي عبر رصد دقيق لتسمياتها وأحوالها وأمراضها وأصواتها وسيرها .ويبرز اعتماد الأصمعي على الشواهد الشعرية في بناء مادته اللغوية، مما يعكس حضور الإبل في تشكيل الصورة الشعرية والبيئة الثقافية للعرب .كما يوضح الكتاب جوانب اجتماعية وثقافية كالعادات، والأمثال، والاعتقاد بالعين، ويُظهر دقة العرب في تسمية الجزئيات المرتبطة بالإبل دون ترادف .ويُعد الكتاب مصدراً لغوياً وثقافياً مهماً لفهم حياة العرب وبيئتهم.

الكلمات المفتاحية: النقد القديم – الأصمعي – كتاب الإبل – إسهام اللغويين.

Abstract:

The study explores al-Aṣmaʿī's *Kitāb al-Ibil* as an early example of semantic-field organization in Arabic. The book documents the rich camel vocabulary—covering states, colors, diseases, sounds, and movement—mainly through extensive poetic evidence. It highlights how camels shaped Arab imagery, culture, and daily life. The work also shows precise naming practices and cultural concepts such as customs and beliefs, making it a key source for understanding Arab linguistic and social heritage.

Keywords: Classical Arabic Criticism – Al-Aṣmaʿī – Kitāb al-Ibil – Contribution of Linguists.

المقدمة:

يُعَدّ حضور اللغويين في النقد العربي القديم من أبرز مظاهر التداخل بين علوم اللغة وعلوم الأدب؛ إذ أسهمت جهودهم في الكشف عن البنية العميقة للنصوص، ورصد الظواهر التي تُظهر دقة العرب في استعمال الألفاظ وتوليد الدلالات. ويأتي كتاب الإبل للأصمعي مثالاً بارزاً لهذا الإسهام؛ فهو ليس مجرد معجم وصفي لألفاظ الإبل، بل يمثل رؤية نقدية ولغوية تُبرز العلاقة بين اللغة والبيئة، وتكشف عن أثر المفردة في تشكيل الصورة الشعرية وبناء المعنى. ومن هنا تتجلى أهمية هذا الكتاب بوصفه مادة لغوية وثقافية تسهم في فهم آليات النقد اللغوي عند العرب، وتُظهر كيف استطاع اللغويون أن يقدّموا معرفة دقيقة تُعين الناقد على تفسير النص وتحليل بنيته.

أسباب اختيار الموضوع

جاء اختيار موضوع إسهام اللغويين في النقد العربي القديم – كتاب الإبل للأصمعي نموذجاً لما لهذا الكتاب من قيمة لغوية ونقدية تكشف عن عمق العلاقة بين المفردة وسياقها الثقافي، ولما يتضمنه من ثراء دلالي يعكس دقة العرب في تسمية أحوال الإبل وجزئياتها. كما أن الكتاب يُعدّ نموذجاً مبكراً لما يُعرف اليوم بنظرية الحقول الدلالية، مما يتيح دراسة تطبيقية تجمع بين التراث اللغوي والرؤية اللسانية الحديثة. ويضاف إلى ذلك أن هذا الجانب – في حدود ما وقفت عليه – لم يحظ بدراسة نقدية مستقلة تُبرز أثر الجهد اللغوي في بناء المعرفة النقدية عند العرب.

هدف البحث

يهدف البحث إلى الكشف عن طبيعة الإسهام الذي قدّمه الأصمعي في كتابه الإبل، وبيان كيف أسهم هذا الجهد اللغوي في خدمة النقد العربي القديم. كما يسعى إلى تحليل الحقول الدلالية التي بنى عليها الأصمعي مادته، وبيان أثرها في فهم النصوص الشعرية التي استشهد بها، وفي إبراز العلاقة بين المفردة وسياقها الثقافي. ويطمح البحث إلى الإجابة عن أسئلة من أبرزها: ما طبيعة الإسهام النقدي الذي قدّمه اللغويون من خلال هذا النوع من التأليف؟

وكيف أسهم كتاب الإبل في بناء رؤية نقدية تستند إلى الدلالة والمعجم؟ وما أثر هذا الجهد في فهم الشعر العربي القديم؟

منهج البحث

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي؛ من خلال وصف المادة اللغوية التي قدّمها الأصمعي، وتحليل الحقول الدلالية التي بنى عليها كتابه، ثم بيان أثر هذه المادة في خدمة النقد العربي القديم. كما يستند البحث إلى المنهج المقارن عند رصد جهود اللغويين الآخرين الذين ألّفوا في الإبل، بهدف إبراز خصوصية منهج الأصمعي وموقعه ضمن هذا الحقل المعجمي النقدي.

تبويب البحث

جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث؛ تناول المبحث الأول: القيمة المعجمية لكتاب الإبل، وجاء المبحث الثاني: بعنوان: القيمة الدلالية البلاغية لكتاب الإبل، أما الثالث: فقد جاء بعنوان: القيمة الثقافية لكتاب الإبل، ثم خُتم البحث بأبرز النتائج، وأُلحقت به قائمة المصادر والمراجع.

تمهيد:

احتلت الإبل في التراث العربي مكانة كبيرة في الحياة، واتخذت أشكالاً حياتية وأسطورية واجتماعية، ويمكن القول إن الإبل " لم تشغل بشكلها وأوصافها حيزاً من القصيدة فقط، وإنما كانت تمثّل محتوى فكرياً يتحدد من خلال أوصافها وأوصاف الشعراء"[1] ، وقد يكون مشهد الناقة في القصيدة التراثية من أعظم الدلائل على مكانة الإبل عند العرب؛ إذ احتلت موضعاً متفرداً في حياة العربي؛ لتصبح رمزاً للعطاء والكرم، كما صارت الإبل جزءاً من صورة الحياة وشكلاً من أشكال بيئته حتى تداخلت صورهما في أشعاره.[2] وقد اعتنى اللغويون الأوائل برصد جوانب تسمياتها وأحوالها وجزئياتها، فشكّلت تلك الرسائل و الكتب معجماً فذّاً لهذه الظاهرة. ويعد كتاب الإبل للأصمعي من الكتب الرائدة والنادرة في هذا المجال، يحاول البحث رصد التأصيل اللغوي للكتاب لهذه الظاهرة عبر ما عرف بعلم الدلالة بنظرية الحقول الدلالية، وهي نظرية معجمية تتشكل عبر

موضوعات جزئية تشكّل الموضوع الكلي، ثم سيحاول رصد التشكيلات الدلالية والثقافية لهذا الكتاب، في محاولة لإبراز أثر حضور الإبل في الإنسان والحياة في تلك المرحلة.

لمحة عن الأصمعي:

الأَصْمعَيُّ، هو أبو سَعيدٍ عبدُ المَلكِ بنُ قُريبٍ، اختُلفَ في تاريخ ولادتِه، فقِيلَ سنةَ: 122، و123، و125، وكذلك اختُلفَ في تاريخ وفاته، فقيلَ سنة: 210 هجرية، وسنة 212، وسنة، 213، وسنة214، وسنة 215، وسنة 216. ويظهرُ أنّ أقربَ الرواياتِ إلى الصّوابِ هي روايةُ ابنِ أخيه التي يقول فيها إنّ عمَّهُ قد تُوفي سنة 216 هجرية.[3] وقد نالَ الأصمعيّ شُهرةً عظيمةً في حياتِهِ وبعدَ مماته، وترك النّاسَ وكلُّهم يلْهَجُ بالثناءِ عليه ومدحِهِ، ويصفهُ بالصّدقِ والعلم، والدّرايةِ والضّبطِ، وحفظِ اللُّغةِ والنّحو والأخبار، والنّوادر، حتّى قالَ عنه الإمامُ الشّافعيُّ: " ما رأيت بذاك المُعسْكرِ أصدقَ من الأصمعيّ".[4]

وأشْهرُ أساتذته خلفٌ الأحمر، والخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيدي، وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم كثير.[5] وقد تلقى على الأصمعيّ كثيرٌ من العلماء، ومنهم أبو حاتم السجستاني.[6]

التأليف في الإبل:

ثمة كتب أو رسائل قد ألفت في موضوع الإبل، وهذا ما يدل على أهميتها في حياة الإنسان العربي الذي عاش متنقلاً بواسطتها طالباً للكلأ والماء في صحراء ممتدة، فكانت رفيق السفر، مما عزز علاقة العربي بهذا الحيوان، وهذا ما جعلها حاضرة بقوة في معجمه اللغوي الذي رصد أسمائها وأحوالها المختلفة، وقد سبق مؤلفون الأصمعي في التأليف في هذا الباب، ومنهم النضر بن شميل (ت: 203ه)، وأبو عمر الشيباني (ت: 206ه)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: 209ه) و أبو زيد الأنصاري (ت: 215ه)، ومنهم من ألف بعده من مثل: أبي نصر الباهلي (ت: 231ه)، وابن السكيت (ت: 244ه)، وأبي حاتم السجستاني (ت: 255ه) وغيرهم، يضاف إلى ذلك إلى أن هناك كتباً كثيرة قد أفردت فصولاً لهذا الموضوع، كما نجد في كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام(ت: 224ه)، وكتاب: الحيوان للجاحظ (ت: 255ه)، وكتاب المخصص لابن سيده (458ه)، وغيرهم.[7]

ولعل الملاحظة البارزة أن أغلب الكتب التي ألفت في هذا الباب لم تصل إلينا، أو لم تر النور بعد، من هنا يأخذ كتاب الأصمعي أهمية قصوى في تقديم صورة نموذجية عن التأليف في هذا الميدان.

كتاب الإبل للأصمعي:

يندرج كتاب الإبل للأصمعي ضمن ما صنفه دارسو اللغة والأدب بالرسائل والكتب التي تعنى بموضوع لغوي واحد، وموضوع كتابنا يندرج ضمن الكتب التي تناولت الحيوان، وهي تعكس عناية العرب، ولا سيما أهل البادية والصحراء بالحيوانات من إبل وخيل وشاء وغيرها؛ إذ عني مؤلفو هذه الكتب بأسماء الحيوان، وأجناسه، وأعضائه، وصفاته، ونتاجه، في نطاق لغوي صرف، يقتصر القول فيه على كل ما يتعلّق بموضوع الحيوان من ألفاظ اللغة.

وبناء على ما سبق يمكن القول إن موضوع الكتاب يندرج تحت ما يُسمى في اللسانيات الحديثة بنظرية الحقول الدلالية، ويعد من الكتب التي شكّلت مادة لغوية في موضوع الإبل التي أخذتها عنها المعاجم اللغوية.

وقد صدر الكتاب في طبعتين، الأولى اعتنى بنشرها المستشرق هفنر وصدرت في بيروت عام 1903م، ولهذه الطبعة الفضل في إخراج الكتاب إلى النور وتعريف القارئ العربي بمثل هذا النوع من الكتب. والطبعة الثانية حققها الدكتور حاتم الضامن تجاوز فيها ما اعترى النسخة الأولى من أخطاء في التحقيق، كما صحح الخلل الحاصل فيها من ناحية الضبط واللغة، وصدرت عن دار البشائر بدمشق عام 2003م.

ويُلاحظ أن كتاب الإبل قد خلا من المقدمة التي تمهّد لموضوعه، أو تعطي صورة عن التأليف السابق له في هذا الميدان، وبذلك فإننا لا نعثر على مسوغات تأليف الكتاب التي كانت رائجة في الكتب التراثية؛ إذ إننا نرى المؤلف يدخل في موضوعه مباشرة بالعبارة الآتية: " قال أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي: حمل الإبل ونتاجها، أجود وقت يُحْمَل فيه على الناقة...".[8]

فالأصمعي يبدأ مباشرة بموضوعه الأول من الكتاب، وهو: (حمل الإبل ونتاجها) من دون مقدمات أو ممهدات للموضوع. وقد اشتمل الكتاب على أحد عشر باباً أو موضوعاً، لم يتبع في ترتيبها أية منهجية، وإنما كان يجمع تحت كل عنوان ما يندرج تحته من ألفاظ وتسميات تغطي الموضوع المندرجة تحته. وقد تناولت أبوب الكتاب موضوعات: حمل الإبل ونتاجها، وما يُذكر به غزارة الإبل، وأسمائها، وأدوائها، وسيرها، وألوانها، وأصواتها، وسرعتها.

أما منهج الأصمعي في التأليف فيقوم على ذكر اسم الباب، ثم يذكر بعض الألفاظ التي تندرج تحته، مع الشرح اللغوي الموجز لها، وربطها بسياقها الاستعمالي من خلال ذكر بعض الشواهد من الحديث الشريف، أو الشعر، أو الأمثال، أو كلام العرب، ومن ذلك على سبيل المثال ما ذكره تحت باب: ومما يُذكر من أسماء الإبل، جاء فيه:

الذَّوْدُ: ما بين ثلاثٍ إلى العَشْر، ... والصِّرْمَةُ: قِطْعَةٌ خفيفة ما بين العَشْرِ إلى بِضْع عشرة، ... ويُقال: على آل فلانٍ صُبَّةٌ من الإبل، وهي من العشرين إلى الأربعين،... والهَجْمةُ: المئة، ويُقال: أعطاه هُنَيْدَةَ، يريدُ مئةً من الإبل. قال جرير:

أَعطَوا هُنَيدَةَ يَحدوها ثَمانِيَةٌ ما في عَطائِهِمُ مَنٌّ وَلا سَرَفُ[9]

فالملاحظ أن الأصمعي قد سمّى الباب أسماء الإبل، وكان ينتظر منه أن يدرج الأسماء المختلفة للإبل، ومرافاتها، ولكنه اكتفى بالتوقف عند المسميات التي تطلق على عدد الخيل كما هو ملاحظ.

ويلاحظ أن الأصمعي قد استقى جلّ مادته من الشعر العربي، وهذا ما يبرز من خلال استشهاده بالشواهد الشعرية، فقد استشهد بما يتجاوز المئتين وتسعين موضعاً بالشواهد الشعرية، في حين لم يتجاوز عدد الأمثال المُستَشهد بها ثلاثة عشر موضعاً، وأقوال العرب وردت في ستة مواضع، وبلغ عدد الأحاديث النبوية الشريفة أربعة أحاديث، وغابت الشواهد القرآنية عن الكتاب، ولعل ما يبرر ذلك أنّ الألفاظ التي أوردها الأصمعي في كتابه لم ترد في النص القرآني.

المبحث الأول: القيمة المعجمية لكتاب الإبل

تبرز قيمة الكتاب من الناحية المعجمية في كونه يعد تأسيساً تراثياً لما عرف في اللسانيات المعاصرة بنظرية الحقول الدلالية، وهو مصطلح استُعمل للمرة الأولى عام 1924، عند اللساني الألماني إبسن Ipsn " الذي حاول أنْ يصنّف مجموعة من الكلمات التي تشكّل معاً معنى موحّداً، وهي الكلمات التي تتصل بالأغنام، وترتيبها في اللغات الهندوأوروبية، وإنْ كانت هذه الكلمات لا ينتمي بعضها إلى بعض اشتقاقياً، وليس لها علاقة ارتباط معينة، وإنما كل ما في الأمر أنها توجد جنباً إلى جنب، مثل حجارة الفسيفساء".[10]

وقد ذهب ديفيد كريستال إلى أنّ " أوّل من وضع المنهج اللساني المطبّق على الحقول الدلالية هم الباحثون الألمان، وذلك في الثلاثينات من هذا القرن(المقصود القرن العشرين) وبالتحديد عام 1930. ففي إحدى الدراسات المبكّرة التي قام بها ج. تريرG. TRIER عام 1934، نراه يظهر الكيفية التي من خلالها يمكن للحقل الدلالي أنْ يتغيّر ويتطوّر عبر الزمن...".[11] وقد نجح تريرTRIER في " استخراج دلالات الكلمات الألمانية الفكرية في العصور الوسطى من خلال دراساته للنصوص القديمة وقسمها إلى ثلاثة حقول دينية وفنية ومعرفية،".[12]

وتأسست نظرية الحقول الدلالية على فكرة المفاهيم العامة التي تُؤلف بين الوحدات اللغوية في لغة ما، بشكل منتظم يساير المعرفة والخبرة البشرية المُحدِّدة للصلة الدلالية، أو الارتباط الدلالي بين الكلمات في لغة معينة.[13] وقد طُرحت تعاريف كثيرة بناءً على هذه الرؤية للحقول الدلالية، مختلفة اختلافاً جزئياً، ولكنها متكاملة. فقد عرّف أولمان الحقل الدلالي بأنّه:" قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبّر عن مجال معين من الخبرة".[14]. وقد ذهب جون ليونز إلى أنّ الحقل الدلالي" هو مجموعة جزئية لمفردات اللغة".[15] أما جورج مونان، فرأى أنّ" الحقل الدلالي مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهوم عام يحدد الحقل".[16]

والمتأمل في كتاب الإبل للأصمعي سيلحظ أن اللغويين العرب قد انتبهوا إلى هذا الجانب، وإن لم يستخدموا مصطلح الحقل الدلالي للتعبير عن هذا الاشتغال اللغوي؛ إذ يعدّ كتاب

الأصمعي والكتب اللغوية الأخرى التي تندرج في السياق ذاته تطبيقياً عملياً لهذه النظرية الدلالية، وبالتالي فكتاب الأصمعي يندرج ضمن حقل دلالي عام، هو الحقل الدلالي الدال على الإبل، ويندرج تحته أحد عشر حقلاً دلالياً فرعياً هي الحقول المرتبطة بأحوال الإبل وجزئياتها، ويمكن توزيعها على النحو الآتي:

الحقل الدلالي	مسماه	نموذج من الألفاظ المندرجة تحته
الحقل الدلالي الفرعي الأول	حملُ الإبل ونتاجها	يقال: ناقة كَشُوفٌ وهي الناقة التي يضربها الفحل وهي حامل[17] ص 43
الحقل الدلالي الفرعي الثاني	غزارة الإبل (أي كثرة لبنها)	يُقال: ناقة رُهْشُوش: إذا كانت رقيقة خوّارة غزيرة. ص 89
الحقل الدلالي الفرعي الثالث	البَكء (قلة اللبن)	يقال: أتانا بشربة خرساء، إذا كانت ثخينةً إذا صُبَّت. ص90
الحقل الدلالي الفرعي الرابع	أسماء الإبل	الهَجمَةُ: المئة من الإبل وما داناها ص 126
الحقل الدلالي الفرعي الخامس	أدواء الإبل	يُقال: قد نِيطَ للبعيرِ، وبه نَوْطةٌ قبيحةٌ: إذا ورم نحرُهُ ص 128
الحقل الدلالي الفرعي السادس	سَيْر الإبل	العَنَق: السير المنبسط، المُسَبْطِر: المسترسل السهل، ص 138
الحقل الدلالي الفرعي السابع	ألوان الإبل	يُقال: ناقة حمراء، فإذا خَلَطَ الحمرةَ صفرةٌقيل: أحمر مُدَمّى. ص 145

الحقل الدلالي الفرعي الثامن	أظماء[18] الإبل	فأوّلُ الأَظْمَاءِ وأقصرها: الرَّغرغَة، وهو أن يدعَها على الماءِ تشربُ متى شاءت. ص 148
الحقل الدلالي الفرعي التاسع	الموسم مع التزنيم[19]	العِلاطُ: خطّ في العنق والسالفة، والبُذُوحُ: الشقوق ص 156
الحقل الدلالي الفرعي العاشر	أصوات الإبل	البُغامُ: أن تُخرج الصوت فلا تقطعه، فإذا ضَجّت فهو الرُّغاء. ص 161
الحقل الدلالي الفرعي الحادي عشر	سرعة الإبل	يقال للسريع: بَصْباصٌ، وحصحاصُ، وحَتْحَات. ص 163

وهنا لابد من الإشارة إلى تفاوت حجم الفصول، فقد أخذ الحقل الدلالي المتعلق بحَمْل الإبل خمساً وأربعين صفحة، والحقل الدلالي المتعلق بالبكء (قلة اللبن) أربعاً وثلاثين صفحة، أي ما يتجاوز نصف مادة الكتاب، في حين جاءت حقول دلالية أخرى موجزة جداً لم تتجاوز الصفحة الواحدة كما نلحظ في حقل غزارة الإبل، وحقل سرعة الإبل، وربما يعود السبب في ذلك إلى ارتباط الحقول المفصلة بحاجات نفعية للناس وتعاملهم معها، فحمل الإبل وقلة اللبن ترتبط بحاجات نفعية يومية وتعامل يومي مع الإبل، مما يُكثر من المفردات الدالة عليها، بخلاف حقل اللون الذي يعدّ محدود الألفاظ مقارنة مع الحقلين السابقين، ومثله يقال في بقية الفصول.

وقد شكّلت المادة الشعرية أساس المادة اللغوية المعروضة في الكتاب، فقلما يورد لفظاً من متعلقات الإبل من دون إيراد للشواهد الشعرية، ومن أمثلة ذلك قول الأصمعي: مصابيحُ الإبل التي تصبح بوارك في مباركها، لا تثور والواحدة: مصباح. قال النابغة:

وَجَدْتُ المُخزياتِ أقلَّ رُزْءاً عليكَ من المصابيح الجِلادِ

أي وجدتَ، وقد أُطْلِقتَ وأُنْعِمَ عليكَ، المخزيات أقلَّ رُزْءاً عليكَ من أن تعطي الإبل.[20]

كذلك يُلحظ عناية الأصمعي بعرض الأصل اللغوي للتسمية اللغوية، ويذكر أوجهها، والاختلاف في أصلها، كما نجد في قوله:

"فإذا ضربها الفحل،قيل: قد قَاعَ عليها وقَعَاً، والمصدرُ: القِياعُ. ومن قالَ: قَعَا، فالمصدر: القَعْو. يقال: قَعَا يقعو قَعْواً، وقاعَ يقوع قِياعاً".[21]

ويقرن اشتقاقات اللفظة بسياقها الاستعمالي في الكلام العربي، في مواضع عدة من كتابه، نحو قوله:

"فإذا ضَرَبَها الفحلُ على غَيرِ ضَبْعَةٍ، قِيلَ: قد بَسَرَها، يَبْسُرُها بَسْراً، ويُقالُ للرجل إذا طلب الحاجةَ في غير موضعها: لا تَبْسُرْ حاجَتَكَ".[22]

وقد تتعدد التسميات والاشتقاقات اللغوية للحالة الواحدة من أحوال الإبل، كما نلحظ في قول الأصمعي:

"فإذا ألقته (أي مولودها) ولم ينبت شعره، قيل: أَمْلَطَت، وأَمْلَصتْ، وأَلْقَتهُ مَلِيطاً ومليصاً، وهي إبلٌ مماليط ومماليص، والناقة مُمْلطٌ ومُمْلِصٌ، فإذا كان ذلك من عاداتها، قيل: مِمْلاطٌ ومِمْلاصٌ. فإذا ألقته وقد نبت شعره، قيل: سبَّغَت وسبَّطَتْ، وهي ناقة مُسبِّغٌ ومُسبِّطٌ... فإذا ألقته قبل حين تمامه، قيل: أَعجلت، وهي مُعْجِلٌ، وهنّ معاجيل، فإذا ألقته قبل تمام وقته، قيل: خَدَجَتْ، وهي خَادِجٌ وخَدُوجٌ، والولد: خَديجٌ".[23]

فالمقبوس يشير إلى غنى التسميات ودقتها في التعبير عن أحوال مولود الناقة، فلكل حالة تسمية تتبعها تسميات أخرى مشتقة منها دالة على صفة من صفات المولود وحالة من حالاته.

وقد أغفل في مواضع عدة من الكتاب، شرح كثير من غريب اللغة الوارد في شواهده الشعرية، أو ردّه إلى أصله غير العربي، فهو يورد على سبيل المثال قول العجاج من الرجز:

وَلَو نَقولُ دَربِخوا لَدَربَخوا

لِفَحلِنا إن سَرَّهُ التَنَوُّخُ

قاعَ وَإِن يُتْرَك فَشَولٌ دُوَّخُ

من دون أن يتوقف عند غريب الألفاظ فيه، فالدربخ: كلمة سريانية تعني التذلل والإصغاء إلى الأمر. وتنوّخ الفحل الناقة: إذا أناخها للضِراب، والشول: القطيع من الإبل الإناث التي يُخلّى فيها الفحل، والدائخ: المستخذي الصاغر.[24]

ويظهر كتاب الإبل مقدار الدقة في التسمية المقترنة بالحالة، وهذا يظهر غنى المعجم اللغوي، فعلى سبيل التمثيل فإنّ لكل حال من أحوال وضع الناقة لحملها تسمية، معبّرة عن الحالة، يقول:

فإذا أَلْقَتْهُ ولم يَنْبُت شَعرُهُ، قيل: أَمْلَطَتْ وأَمْلَصَتْ، ... وهي إبل مماليط ومماليص، والناقة: مُمْلِطٌ ومُمْلِضٌ، فإذا أَلْقَتْهُ وقد نبتَ شَعْرُهُ، قيل: قد سبّغتْ وسَبّطتْ، وهي ناقة مُسَبِّغٌ، ومُسبَّطٌ. ويُقال: ألفَتْهُ مُشَعّراً... فإذا أَلْقَتْهُ قبل حين تمامه، قيلَ: أعجلَتْ، وهي مُعْجِلٌ، وهنّ مَعاجيل. فإذا أَلْقَتْهُ قبل تمام وقته، قيل: خَدَجَتْ، وهي خادجٌ وخَدوج، والولدُ: خَدِيجٌ. فإذا كان ذلك من عاداتها، فهي ناقةٌ مِخْدَاجٌ...[25]

لعلنا نلحظ الغنى اللغوي في تسمية كل حالة من أحوال وضع الناقة لمولودها، ودقة التسمية وارتباطها بالتعبير عن كل حالة من أحوال المولود، ووقت ولادته، وغير ذلك، مما يظهر العناية الفائقة التي حظيت بها الإبل في حياة العرب. كما نلحظ أن العلاقة الدلالية بين مفردات هذه الألفاظ لا تقوم على علاقة الترادف، وإنما تقوم على تعدد التسمية بتعدد الأحوال، فلكل حال لفظ دال عليه.

وقد يورد الأصمعي الاستعمال الخاص للفعل؛ فلا يرد في غير موضع واحد، كما نلحظ في قوله: "فإذا فرقَت الناقة، وليس عندها أحد، قيل: قد انْتَتَجَتِ الناقة، ولا يجيء الفعل في شيء من النتاج إلا في هذا الموضع".[26]

كما اعتنى الأصمعي في بعض المواضع بإبراز الفروق اللهجية، ومن ذلك قوله: يقول أهل الحجاز: رَضَعَ يرضِعُ، وتقول قيس وتميم: رَضِعَ يرضَعُ.[27]

ومنه، قال الأصمعي: قلتُ لرجلٍ من هُذَيلٍ: ما فعل أبوكَ؟ قال: رقعَ رأسه ففقَّحَ، أي فتح عينيه من المرض.[28]

كما يبرز دقة استعمال التسمية، وخصوصيتها، ومن ذلك قوله: فإذا غُذيَ الولدُ بغير أمه، فهو عَجِيّ، والجميعُ: العَجايا.[29]

وقد اعتنى بذكر الغريب النادر، ومنه قول الأصمعي: "ويُقال: بعيرٌ صِهْمِيُم: إذا كان شديد النفس مُمْتنعاً، وسألتُ رجلاً من أهل البادية: ما الصهميمُ؟ فقال: الذي يزمُّ بأنفه، ويخبطُ بيده، ويركض برجله".[30]

ويذكر التسميات المتعددة للشيء الواحد، فالتصدير، والوَضينُ، والغُرْضة، والغَرْضُ، والسَّفيفُ: كل هذا حِزامُ الرَّحْل، من جلود، وربّما كان من لِيفٍ.[31]

وكذلك فصّل القول في تسميات الإبل المختلفة المرتبطة بالصوت، وبورودها للماء، وبمشيتها، وأمراضها وغير ذلك، وهي تسميات تنطلق من تفصيلات تلك الأحوال، فلكل حال تسمية، وهي في مجملها تسميات لا تقوم على الترادف، مما يشير إلى غنى المعجم اللغوي للإبل في لغة العرب، فمن ارتباط تسمية الإبل بعددها، فالذَّوْدُ: ما بين ثلاث إلى العشر، ومنه قيل: الذَّود إلى الذود إبل. والصِّرمةُ: ما بين العشر إلى بِضع عشرة، والصُّبّةُ: وهي من العشرين إلى الأربعين، والعَكَرَةُ: من الخمسين إلى السبعين، والهَجْمةُ: المئة.[32]

المبحث الثاني: القيمة الدلالية البلاغية لكتاب الإبل

لاشك أن الارتباط وثيق بين اللغة والبيئة، ومن هنا تشكّل المفردات الرئيسة والمركزيّة بؤراً دلالية تحضر بقوة في تشكيل الصورة الشعرية، وتعد مفردة الإبل وما يندرج ضمنها من حقول دلالية لغوية من المفردات المركزية في ذهن الشاعر العربي، ومن هنا نلحظ حضور الإبل باعتبارها عنصراً لغوياً أصيلاً في تشكيل الصور الشعرية، فهي مكون جمالي يمنح الصورة قوتها البلاغية، ويكون عنصراً حاسماً في التشبيه، كما نلحظ في قول الشاعر عُمارة بن أَرْطَأة:

اعْجَلْ بغَرْبٍ مثل غَرْبِ ومَنْجَنُونٍ كأتّان الفارِقِ

فالغرب: هو الدلو العظيمة، والمنجنون: الدولاب، وقد شبّه الغرب بالأتان الفارق في ضِخَم الجنبين، وهي أعظم ما تكون بطناً إذا تهيّأت للنتاج.[33]

وتأتي ألفاظ الإبل دالة على الكرم من خلال الكناية عن الصفة، وهو ما نلحظه في قول الأصمعي: "فإذا فارقت الناقة ولدها بذبْحٍ أو موتٍ أو بيع أو غير ذلك، قيل: ناقة مُفْرِقٌ، والجماع: المفارِقُ. قال عوف بن الأحوص:

وإجْشامي على المكروهِ نفسي وَإِعْطائِي المُفَارِقَ والحِقاقَا[34]

فإعطاء الشاعر للمفارق؛ أي ولد الناقة، هي كناية عن كرمه.

ومن المجاز تشبيه الكلام باليتن، يقول الأصمعي: " فإذا خرجت رِجْل الولد قبل رأسهِ، قيل هذا نتاج يَتْنٌ"، ثم يورد سياق الاستعمال المجازي لهذا اللفظ من خلال القصة الآتية: " قال: حدثني عيسى بن عمر، قال: سألت ذا الرّمة عن شيء من الكلام ليس على وجهه، فقال: أَتَعْرف اليَتْنَ؟ قلت: نعم، قال: كلامك يَتْنٌ".[35]

فسياق الكلام يشير إلى استعمال مجازي في قول ذي الرمة: (كلامك يتن) أي كلام في غير وجهه.

ومن استعمال الحقل الدلالي للإبل في سياق شعر الغزل، ما قاله أبو ذؤيب الهذلي:[36]

فَتِلكَ الّتي لا يَبرَحُ القَلبَ حُبُّها وَلا ذِكرُها ما أَرزَمَت أُمُّ حائِلِ

أم حائل: كناية عن الناقة. والحائل هي الأنثى من ولد الإبل ساعة تولد، وأرزمت: أي حنّت. والمعروف أنها تحن أبداً، والكلام في سياق الغزل والتعبير عن المشاعر للإشارة إلى أن الحب لن يبرح أبداً قلب الشاعر، وكانت القرينة الدلالية لإيصال هذا المعنى هي قوله: ما أَرزَمَت أُمُّ حائِلِ.

وقد يعتمد التشبيه على الصوت كقول ذي الرمة:[37]

بها الذئبُ محزوناً كأنّ عُواءَهُ عواءُ فصيلٍ آخِرَ الليلِ مُحْثَلِ

فقد شبه عواء الذئب المحزون، بعواء الفصيل.

وقد تؤخذ الصورة مما يقطر به جلد الإبل، ويذكر الأصمعي منه: الصابُّ: وهو شجر له لبنٌ إذا قطر على الجلد أحرقه، فإن كُحلَ به، فذلك البلاء، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَيلَ مُشتَجِراً كَأَنَّ عَينِيَ فيها الصابُ مَذبوحُ[38]

فيشبه ما اعترى عينه بالصاب الذي يحرق العين.

وقد يستمد التشبيه مما توسم به الإبل، ومن ذلك على سبيل المثال: يقال: ناقة أَينُقٌ رُعْل: وهو أن تُشَقَّ شِقَّةٌ من أُذُنها، ثم تُترك مدلاة، ومن هذه الحال ما أورده الأصمعي في قول الشاعر:

رأيتُ الفِتْيةَ الأَعْزا لَ مِثلَ الأينق الرُّعلِ[39]

فالتشبيه قائم على تشبيه حال تلك الفتية بحال الإبل المصابة بذاك الداء.

وتستمد الصورة الدالة على الحالة الانفعالية والعاطفية من صورة الناقة التي فارقت ولدها، يقول الأصمعي:

" فإذا ذُبح أو مات أو وُهب ولدها، فهي عَجُول وسَلُوب ومُفْرقُ، قال ابن رعلاء الغساني:

مَا وَجْدُ ثَكلى كَما وَجَدْتُ ولا وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبْعُ

فالشاعر أراد تصوير شدة وجده فجعله يتفوّق على وجد الثاكلة ووجد العجول المفارقة لولدها.

ولا يقتصر الجانب البلاغي على الصور، وإنما يندرج ضمنه فصاحة الأساليب وطرق استعمالها، فمن الأساليب البلاغية قوله: فإذا أردت أن تقول: أُحَاد أُحادَ، وثُناء ثُناء، وثُلاث إلى العشر، وهو مضموم ممدود، قال الشاعر في أُحاد:

متى لكَ أنْ تُلاقيني المنايا أُحادَ أحادَ في الشهر الحلالِ

متى لك: قُدِرَ لك.[40]

ولدريد بن الصمّة:

يُصيّد أُحدانَ الرِّجالِ وإِنْ يَجِدْ ثُناءَهمُ يَفْرَحْ بهم ثُمّ يزْدَدِ[41]

وقد يتخذ الأصمعي من الحديث عن أحوال الناقة مناسبة لتفصيل الاستعمالات المختلفة للفظ، كما نلحظ في سياق قوله: وإذا تدانى نسب الناقة من الفحل فجاء ولدها ضاوياً ضعيفاً، قيل: قد أضوت..." ثم يفصل السياقات التي يرد فيها هذا اللفظ في كلام العرب فيقول: "ويُقال: بنو فلان لا يزالون يضوون إلى فلانٍ، أي: لا يزالون يرجعون إليه، ويقال: فلانة تضوي إليها أخبار الناس، أي: ترجع، ويقال: استغربوا لا تُضووا، أي انكحوا البعاد في النسب، ويقال: غلام فيه ضاويَّةٌ، وغلام ضاوِيٌّ".[42]

كما يشير إلى الاستعمال اللغوي الفصيح لبعض الألفاظ، ومن ذلك قوله: "ويقال: عوى الفصيل، ولا يقال لشيء من البهائم: عوى، إلا الكلب والذئب".[43]

وقوله: "واليتمُ في البهائم: موت الأمّ، وفي الأنس: موت الأب".[44]

المبحث الثالث: القيمة الثقافية لكتاب الإبل

تعكس المادة اللغوية في كثير دلالاتها صورة عن البيئة الثقافية والاجتماعية، فكانت مشاهد الحيوان في الشعر التراثي واحدة من الأصول التي أظهرت جوانب من معارف العرب وعاداتهم[45]، فعكست تلك القصائد طبيعة تفكيرهم ونفسيتهم وعقلية عصرهم؛ وأوضحت مبادئهم الفكرية والاجتماعية ما توافق منها مع الواقع أو ما جنح إلى الرمز[46] ، ومن بين هذه العادات الإصابة بالعين. يقول الأصمعي:

"فإذا بركت الناقة على بول أو ندى أو أصابتها عين فتعقّد لبنها في ضرعها، ... قيل: قد أَخْرَطَتْ ناقة فلان، فهي مُخْرِطٌ... ولبنها: الخَرَط".[47]

فالمقبوس يشير إلى ظاهرة ثقافية هي الاعتقاد بالإصابة بالعين من باب الحسد الذي قد يصيب المال والبشر.

كما يقدّم الكتاب صورة عن معارفهم بالأمراض وتسمياتها وعلاجها، وهذا ما يظهر في شكل ثقافي بشكل خلاصة تجربة وهو الأمثال التي تعبّر عن ذلك، يسُتمَدّ المثل من أدواء الإبل، ومن ذلك: أُسْتَنَّتِ الِفصَالُ حَتَّى القَرْعى، وهو مثل يضرب للرجل يفعل ما ليس له بأهل، وكذلك يضرب " يضرب للذي يتكلم مع مَنْ لا ينبغي أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره".[48] والقَرِع من الأمراض التي تصيب الإبل، وأكثر ما يكون في القوائم والعنق وسائر الجسد، وهو بثر.[49]

وقد يستمد المثل من وصف حال الإبل، للتعبير عن حالة اجتماعية، ومنه قولهم: الضَّجُورُ تَحْلَبُ العُلْبَةَ،[50] يضرب للبخيل يُسْتَخْرج منه الشيء وإن رَغِمَ أَنْفُه،[51] والأصل: ناقة ضجور وهي التي ترغو عند الحلب.[52]

ويقال: ما له هُبَعٌ ولا رُبَعٌ، أي ما له قليل ولا كثير، والأصل إذا نُتِجت الناقة في الصيف، قيل لها: مضياف، وقيل لولدها: هُبَعُ.

وقد يرتبط اللفظ بدلالة ثقافية، مما يشير إلى علوم سائدة وقتئذٍ، كعلوم النجوم، ومن ذلك قول الأصمعي: "حدثنا أبو عمرو بن العلاء، قال: يطلع كوكب قبل سهيل، يقال له: ثور أبيض يُسمّى المُخلف، لأن الناس يشكّون فيه حتّى يتحالفوا أنه سهيل، فمِنْ ثمّ قيل للشيء يشكّون فيه: مُخْلِف".[53]

وقد تأتي التسمية من العرف الاجتماعي، وهذا ما نلحظه في قول الأصمعي: " يُقال: ما في إبله قاضية، أي ليس فيها ما يجوز عند أصحاب الصّدقة، ولا في الديّات. والقاضية: التي تقضي عنه.قال ابن أحمر:

لَعَمرُكَ ما أعانَ أبو حكيمٍ بقاضيةٍ ولا بَكْرٍ نجيبِ[54]

فالتسمية للإبل أتت من عرف اجتماعي.

الخاتمة:

وفي نهاية المطاف مع كتاب الإبل للأصمعي، يهمّنا تأكيد النتائج الآتية:

أولاً: يعد كتاب الإبل من النماذج التطبيقية العملية لما عُرف في اللسانيات الحديثة بنظرية الحقول الدلالية، كما يعد من الكتب التأسيسية للمادة اللغوية التي تؤسس على موضوع واحد، وهذا ما يسهم في مساعدة الباحثين في دراسة المادة اللغوية وتطورها ورصد دلالاتها.

ثانياً: على الرغم من التقدير للجهد الذي بذله محقق الكتاب إلا أن الكتاب قد افتقد في مواضع عدة التعريف بالشعراء المجهولين، لاسيما أن الأصمعي قد استشهد بكثير من أشعارهم، إلا أن التعريف بهؤلاء الشعراء قد غاب عن التحقيق، كما غاب تفسير كثير من الألفاظ الغريبة التي وردت في الكتاب، مما صعّب مهمة الدارس لتلك الألفاظ.

ثالثاً: ينطوي الكتاب على مادة لغوية تظهر غنى معجم الإبل، إذ اعتنى المؤلف بذكر التسميات المختلفة لأحوال الإبل وتفاصيلها والوانها وجملها وسيرها وغير ذلك، واللافت أن العلاقة الدلالية بين هذه التسميات ليست من باب الترادف، وإنما من باب تسمية كل جزء بمسمّى مختلف.

رابعاً: قدم الكتاب نماذج غنية من الشواهد الشعرية التي تشير إلى الحضور القوي للحقل الدلالي للإبل في تشكيل الصورة الشعرية، كما قدم الكتاب نماذج من التسميات التي عبّرت عن ثقافة ذلك العصر.

خامساً: شكّلت المادة الشعرية الأساس الذي اعتمد عليه الأصمعي في عرض مادته اللغوية، وربما مرد ذلك إلى أن الأصمعي من الرواة البارزين للشعر العربي، وله الفضل في نقل كثير من الدواوين الشعرية إلينا.

هوامش البحث:

[1] - وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، نوري حمودي القيسي، مطبعة مؤسسة دار الكتب بجامعة الموصل، الموصل، 1974، ص 29.

[2] - ينظر: مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، حسين جمعة، دار دانيه للنشر، دمشق، ط1، 1990، ص 16.

[3] - ينظر: نزهة الألباء،لأبي البركات الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1967 : 84، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، القاهرة، 1930: 2/ 217، أخبار النحويين للسيرافي، نشر: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، 1955: 52، اشتقاق الأسماء، للأصمعي، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ود صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994: 7 وما بعدها.

[4] - نزهة الألباء: 84، وانظر: اشتقاق الأسماء: 10

[5] - ينظر: المصدر نفسه: 14 وما بعدها.

[6] - ينظر: المصدر نفسه: 18.

[7] - ينظر: كتاب الإبل، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، ط1، 2003، ص 7-8 .

[8] - كتاب الإبل،مصدر سابق، ص 43.

[9] - ينظر : المصدر نفسه: ص 125-127.

[10] - التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه، كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ط1، 2000: 122/1.

[11] - دراسات نحوية ودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة، مازن الوعر، دار المتنبي، دمشق، ط1، 2001: انظر الحاشية ص: 40.

[12] - التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه، كريم زكي حسام الدين: 122/1- 123.

[13] - ينظر: الألسنية العربية، وِيمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981: 93

[14] - علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1988: 79

[15] - المرجع نفسه، ص 79

[16] - أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، أحمد عزوز، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002: 12

[17] - ينظر: لسان العرب مادة: كشف

[18] - أظماء جمع ظِمْء: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورود ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: ظمأ

[19] - قال الأصمعي: التزييم: أن تُشقَّ أذن البعير، ثم تُفتَل حتّى تيبس، فتصير مُعلّقةً، ينظر: كتاب الإبل، ص 156

[20] - كتاب الإبل،مصدر سابق ، ص 107

[21] - كتاب الإبل،مصدر سابق ، ص 44.

[22] - المصدر نفسه، ص 44.

[23] - المصدر نفسه، ص 49.

[24] - ينظر:كتاب الإبل،مصدر سابق ، ص 44 الحاشية رقم: 3

[25] - ينظر:المصدر نفسه، ص 49

[26] - المصدر نفسه، ص 51

[27] - ينظر:كتاب الإبل،مصدر سابق ، ص 70

[28] -ينظر: المصدر نفسه، ص 85

[29] - ينظر:المصدر نفسه، ص 72

[30] - المصدر نفسه، ص 109- 110

[31] - ينظر: المصدر نفسه، ص 115

[32] - ينظر: المصدر نفسه، ص 125-126

[33] - ينظر:كتاب الإبل،مصدر سابق ، ص 50.

[34] - ينظر: المصدر نفسه، ص 51.

[35] - كتاب الإبل، ص 51-52.

[36] - ينظر: المصدر نفسه، ص 55.

[37] - ينظر: المصدر نفسه ، ص 69.

[38] - ينظر: المصدر نفسه ، ص 85.

[39] - كتاب الإبل،مصدر سابق، ص 159

[40] - ينظر: المصدر نفسه ، ص 66

[41] - ينظر: المصدر نفسه ، ص 66

[42] - كتاب الإبل، ص 67-68.

[43] - المصدر نفسه، ص 69.

[44] - المصدر نفسه، ص 69.

[45] - ينظر: الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، 1969، ج6، ص 29

[46] - ينظر: الحيوان في الشعر الجاهلي، حسين جمعة، دار دانيه للنشر، دمشق، ط1، 1989، ص 122

[47] - كتاب الإبل، مصدر سابق، ص 75.

[48] - مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج1، ص ٣٣٣

[49] - كتاب الإبل،مصدر سابق، ص 135.

[50] - ينظر: المصدر نفسه ، ص 107.

[51] - ينظر: مجمع الأمثال، ج1، ص 420.

[52] - ينظر: كتاب الإبل ،مصدر سابق ، ص 107.

[53] - المصدر نفسه، ص 79.

[54] - كتاب الإبل، مصدر سابق، ص 86.